

الوقائع الحربية في الشعر العربي

لرئيس نعيان ماهر الكنعاني

—♦♦♦—

من بين أبواب الشعر العربي المدينة باب هام جدير بالحديث أيما جدارة ذلك هو باب شعر الوقائع الحربية . وإني لا أزعج أن هذا اللون من الشعر لم تصبه عناية الباحثين فقد بحثه كثير من رجال الدراسات الأدبية وتاريخ الأدب ، وأشاروا إلى مواطن الإجابة والإبداع فيه ودلوا على قيمته الأدبية والفنية ، إلا أني لم أقم على من خصه بهذا الوصف أو بحثه بحثاً عسكرياً أدبياً في آن فإن جل باحثي هذا الشعر كانوا يضمنونه نارة في باب الحماسة وأخرى في باب الفخر وأحياناً يزجون به في موضوع الدبح وقليل منهم يضمنه إلى الوصف ، وقد مررت أثناء مطالعاتي لدواوين القدامى بقصائد احتوت على الكثير من أقسام المارك التي نظمت تلك القصائد ، أي أنها احتوت على أكثر صفات المركة كالتهجد والاستطلاع والتقدم والتصادم واستثمار الفوز إلى غير هذه المصطلحات الحديثة . وكانت تصور تلك المارك تصويراً بارعاً يخيل لمن يقرأها أنه يشاهد عرضاً مصوراً لهاتيك الوقائع على تفاوت في السرد والتصوير فن الشعراء من جعل منظومته لوصف المركة فقط ، ومنهم من مزجها بالدبح أو ذكرها على سبيل الفخر أو أشار إليها في مرض الحماسة .

من هؤلاء الشعراء أبو فراس الحمداني وأبو الطيب المتنبي وأبو تمام الطائي وابن هاني الأندلسي وآخرون غيرهم سجلوا في شعرهم كثيراً من المارك التي اشتركوا فيها أو شهدوها أو سمعوا بأنبائها . ولكن الذي أجاد وبرع لإجابة ظاهرة هو الحارث بن سعيد أبو فراس الحمداني لأن هذا الشاعر اجتمعت له إمارة السيف والقلم اجتماعاً ندر أن يتم لغيره .

فاستمع إليه يتحدثك عن حرب له مع الروم واقرا صفحات هذه المركة في هذه الرائية صفحة صفحة تعلم صحة ما ذهبنا إليه . قال يصف تقدم جيشه في بلاد المدر :

وجبن بلاد الروم ستين ليلة تقادروم فيمن تقادرو
ولكن ماذا كان موقف سكان البلاد التي سارت فيها خيول
المداني ستين ليلة :

تخر لنا تلك القبائل عنوة وترى لنا بالأهل تلك المصادر
ثم استمر على قراءة القصيدة لتعلم اقتراب جيشه من جيش
المدو أمني لتعلم التقدم نحو الهدف :

ولما وردنا (لدر) والروم فوقه وقدر (قسطنطين) أن ليس صادر
ضربنا بها عرض (القرات) كأنما تصيرنا تحت السروج الحرائر
إلى أن وردنا (الرقتين) نسوقها وقد نكلت أعقابها والقاصر
فهنا اصطدم جيش الحمداني بجيش قسطنطين وهرب الأخير
واستمر الأول على الزحف :

ومال بها ذات العيمن (بمرعش) مجاهد بتلو الصادر المتصدر
فلما رأى جيش (الدمستق) زاحت

عزائمها واستنهضتها البصائر
لقد اصطدم هذا الجيش بقوات جديدة للمدو هي جيش الدمستق
فاستمع إليه يصف هذا الصدام الجديد :

وما زلت يحملن النفوس على الوجي
إلى أن خضبن بالدماء الأشاعر
وولى على الرسم (الدمستق) هاربا

وفي وجهه عذر من السيف عاذر
فدى نفسه بآن عليه كتفسه وفي الشدة الصماء تقني الدخائر
لقد تحملت خيول الحمداني عبء المركة ثقيلاً إلى أن خضبت
أشاعرها بالدماء حيث تم له النصر وانحدر جيش الروم وفر قائده
الدمستق بعد أن ترك ابنه أسيراً لدى أبي فراس .

هذه أبيات صورت معركة من معارك العرب تصويراً يكاد
لا يختلف كثيراً ووصف المارك الحديثة بالكتابة .

وهذا ابن هاني الأندلسي له باع طويل في تسجيل المارك في
شعره ، فأقرأ قصيدته الدالية التي يصف فيها نصراً شهده لجيش
جعفر بن علي بن غلبون واستيلاءه على قلعة كتامة قال :

أقنا فن فرساننا خطباؤنا ومتبرنا من بيض مانطع الهند
ولولم يتم فيها لحدك خاطب علينا وفينا قام بمنطينا الحد
على حين لم يرفع بها خليفة منار ولم يشدد بها عمرو عقد

وكانت شجراً للملك ستين حجة وماطير وصل لم يكن قبله صد

بها النار نار الكفر شب ضرامها

ولو حجبت في الزند لا حترق الزند

وعادت بها حرب الأزارق لا قجا

وإن لم يكن فيها المهلب والأزد

ولما اكفر الأمر أعجلت أمرها

فألقت وليد الكفر وهي له مهد

أخذت على الأرواح كل ثنية وأعقبت جنداً واطناً ذيله جند

لقد محمد جيش ابن غليون لغزو هذا الحصن المتمتع العاصي

الذي لم يطعم الخلافة الأندلسية ستين عاماً حتى كان شجراً في حلق

الدولة وتقدم إليه ورماء بالنار فصمدت واكفر الأمر على الفأخ

فأعجل الضربة حتى سقط بين يديه وأحاطه بسكروه بعد أن

سد على الدافعين الطرق والسالك ودمهم يجنده قساقطوا جيشاً

وأشلاء .

ثم هذا أبو الطيب المتنبي يسجل وقعة للأمر الخالد سيف

الدولة الحمداني بقصيدة رائعة شهيرة هي تلك التي يقول في مطلعها

على قدر أهل الزم تأتي الزمام .

وكان سيف الدولة قد غزا قلعة الحدث وصحب معه الشاعر :

خميس مشرق الأرض والقرب زحفه

وفي أذن الجوزاء منه زمام

تجمع فيه كل لن وأمة فاتفهم الحدات إلا التراجم

قله وقت ذوب الفس نار فم يبق إلا صارم أو ضبارم

أما وقد علمت هذا الجيش ومقداره ونمسه فاعلم حاله قبل

الصدام : -

تقطع ما لا يقطع اللرع والقنا وفر من الأبطال من لا يصادم

وهنا تخاض الجيش الحمداني من الضعفاء وسيدخل المركة

قريباً وبعد فاستمع إلى الشاعر يصور لك تهيئة القائد وأسلوب

دخوله المركة :

ضممت جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافي تحتها والقوادم

بضرب أنى الهامات والنصر غائب

وصار إلى اللبات والنصر قادم

وينخذل العدو بعد هذه الضربة ويستثمر الفوز ابن حمدان

فيقول الشاعر :

نثرهم فوق (الأحيب) كله

كما نثرت فوق الدروس الدرام

تدوس بك الخيل الوكور على الدرى

وقد كثرت حول الوكور الطاعم

ثم يعلن لك التنفي خسائر العدو في هذه المركة ويذكر

مهرب قائدهم ومقتل ابنه وصهره وابن صهره حيث يقول :

أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم قفاه على الإقدام للوجه لاثم

وقد فجمته بابنه وابن صهره وبالصهر حملات الأمير القواشم

مضى يشكر الأصحاب في فوته الظبي

بما شغلها هامهم والمعاصم

ففيها تقدم من رائمة التنبي هذه قرأنا صفحات المركة كما

اصطلح عليها الفن المسكري الحديث من محمد إلى دخول المركة

إلى استنهار الفوز .

هذه أمثلة من أمثلة شعر الملاحم العربية تدل على غنى الأدب

العربي عامة والشعر منه خاصة في هذه الناحية من نواحي تدوين

الوقائع بالنظوم ، وعلى أن تكون لنا عودة إلى هذا الموضوع فنأتي

بأمثلة أخرى لنقرأ فيها أخبار وقائع أخرى .

نعمان ماهر الكنعاني

الرئيس في الجيش العراقي

لم يبق في إدارة الرسالة

إلا نسخ محدودة

من كتاب

كتب وشخصيات

للمستاذ سبر فطرب